دراسة في السيرة وأيام العرب

الدكتور نوري حمودي علي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تعني السيرة تاريخاً من حيث تناولها حياة فرد له اهميته باعتباره موجها للاحداث في عصره ، أو جماعة أخذت مكانها المرموق في تأريخ شعب أو احداث انسانية ، وهي تمثل الادب لانها تحمل مضامينه ، وانطباعاته وتتلون بالثقافة العامة التي عاشها وتأثر بها وبالوضع الاجتماعي والنفسي والديني ، وتتحدد من خلال الموقف الثابت الذى يمثله كاتبها أو صاحبها من الحياة ، وتحديد هذا التعريف لا يبتعد عن المفهوم السائد للسير الشعبية المعروفة ولا يختلف عن الاطار الذى تحركت فيه احداثها ، أو ارتسمت من خلاله الوانها واشكالها . فسيرة الزير سالم وابي زيد الهلالي وعنتره والظاهر بيبرس لم تكن تسجيلا لأحداث حياتهم ولا صورة لمراحلها . ولا متابعة لدقائق ما مرت به من ظروف ، أو اتخذته من مواقع ، أو التزمت به من مواقف . وهي لم تكن سجلا وثائقيا للجماعات التي نشأ فيها هذا البطل ولا مسارا دقيقا لحركتها التأريخية أو البشرية . لان الاحداث الضمنية التي تخللتها السيرة كانت مغايرة من حيث الواقع مع الحياة الحقيقية لكل واحد من اولئك . ومختلفة من حيث الاطباء الشخصي والجماعي والقومي مع ما ورد عنهم في تلك السير ، حتى نوشك ان نقول بان الاحداث الموجودة لا تتفق تأريخيا مع الواقع الذى عاشه اصحاب تلك السير أو تعاملوا معه أو خضعوا له أو وجدوا فيه ، فالسيرة في اطار هذا التوجه ليست عملا تأريخيا بحتاً ، أو صورة انسانية مطابقة ، أو احداثا

قومية متفقة مع الاحداث التي سجلها التأريخ ، او وثقتها الوثائق ، او رددتها الاخبار المسندة الصحيحة . وانما هي احداث متلاحقة لاشخاص وجماعات عرفهم التأريخ بخصائص قد تكون متميزة الى حد ما وقاموا بأعمال اكتسبت طابع الانفراد . وقد حاول كتاب هذه السير ان يلتقطوا من اخبار التأريخ ما عرف ومن دقائقه ما شهر ليحققوا رغبتهم ، ويؤكدوا هدفهم ، ويسندوا منهجهم الذى اختاروه وهذا ما جعل السيرة غير مكتفية بالحدث التأريخي، ولا مقتصرة على الاخبار التي تتعلق بصاحب السيرة أو متصلة بمن عرف بقربه منه . أو على علاقة بقومه وانما تجاوزت ذلك الى استحداث المواقف وتصوير الوقائع . واستجماع الاحداث التي استقطبت اهتمام الناس ، ووجهت اليها الانظار ، باعتبارها احداثا حاسمة ، ومواقف جريئة ، ومواقع حربية ارتبط بها مصير الامة . وتحددت بموجب نهايتها اسباب وجودها لتعاني هذه الاحداث لصاحب السيرة قدرة التحرك ومجال التفوق . وامتلاك ناصية تقرير المصير ليستطيع المؤلف من خلال هذه المواقف ان يمنح صاحب السيرة مظاهر البطولة . ويضفي على اعماله ما يجعله متميزا عن الآخرين ، وبالتالي محاولة التأثير في نفوس المستمعين أو القراء ليستحوذ على مشاعرهم، وينفذ الى قلوبهم . وليكون البطل المنقذ والرجل الفذ . والانسان المتميز وهذا ما دفع بعض كتاب السيرة الى الاستعانة بشخصيات لا تقع اعمالهم في دائرة التصور . ولا تخضع تصرفاتهم لما يخضع له البشر ليضيف الى اعمالهم اعمالا لم تتحقق في الاطار المعقول . ولم تدخل في حساب السلوك المعروف ، وهذا ما فعلت به كتب السيرة فوجدنا أصحاب الخوارق في مسيرة الظاهر بيبرس وملوك الجان في سيرة سيف بن ذى يزن واصحاب السحر في سيرة عنترة .

ان هذا الاطار الذى تحركت فيه السيرة ، وكتبت احداثها في ضوئه يمكن ان تتداخل احداثها في مجال القصص الذى قدمتها آداب العالم وعرفتها عصور الادب واذا حاولنا الدقة في استقصاء الوقائع ومتابعة الاشكال الاسطورية التي وردت في احداث كل سيرة ، استطعنا ان نقف على ثروة

من المعتقدات وسيل كبير من الطقوس التي اختزنتها هذه السير وحاولت ان تستخدمها في المجالات المناسبة . وتحدد لها مواقعها في التدرج القصصي الذي قصد اليه مؤلفوها وهذا ما اعطى السير مكانة مرموقة في الحقل الادبي ، لانها اعتمدت القصص الشعبي واستمدت من احداثه مادتها . واتخذت من اساطيره خوارقها . وانتفعت من حكاياته من اجل اقامة الاعمال الروائية الكبيرة التي ظلت اثارها واضحة في كثير من الاعمال . وبقيت خصائصها تغذى العقل العربي . وتسده بالنماذج الحية . وتحفز الجمهور الى التطلع نحو المثل البطولي المتميز . وظلت اسماء اولئك الابطال تأخذ بعدها في الحكايات الشعبية وتنشر ظلها الوجداني في الاحاسيس . وتعد النشاط الذهني والنفسي والاجتماعي يمثل مثلاً انسانية وقيم اجتماعية وتقاليد قومية ورثتها الاجيال ، والتزمت بالحفاظ عليها . وظلت امينة على التمسك بها عند كل ملمة ، والدفاع عنها عند كل تأزم اجتماعي أو احباط نفسي . أو توثب جماهيري .

لقد حاولت السيرة ان توظف الاسطورة لصالحها . وتتخذ من احداثها ما ينفعها لان صاحبها كان يتعامل مع الكائنات الغريبة ، والقوى الغيبية وهذا ما جعل السيرة محتفظة بالكثير من وظائف الاسطورة ، على الرغم من اعتمادها الاحداث التأريخية المدونة والشخصيات الثابتة والوقائع التي كانت قريبة من كل قارىء . وواضحة لدى كل مستمع .

لقد حاول بعض الباحثين ان يدخلوا السيرة في مفهوم الملاحم ، أو الاساطير لما وجدوه فيها من تقارب في التناول . وتشابه في السرد ، واتصال في المعالجة . ولكن الحقيقة تختلف عن هذا فالسيرة لها قواعدها ومنهجها ، ولها احداثها ومعالجاتها ، ولها ينابيعها التي تستمد منها احداثها ، وهي ينابيع متميزة . تتصل صورها بالبيئة العربية . وتتفق احداثها مع الاحداث التي آمن بها الجمهور ، وتأثر بها وادرك اسوارها ووقف على كل دقيقة من دقائقها ، وكانت تجرى في المجرى الذى خطط لها ، والهدف الذى وضع لاهدافها لتأخذ المسلك الانساني . ولتقع في دائرة الحس القومي المرسوم ، وكان المؤلفون

في كل موقف يسعون من أجل وضع الانسان في المكان السامي ، واضفاء طابع الخلود على كل عمل من اعماله ، وان كانت تتجاوز في كثير من الاحيان الحد المعقول ، والتصور المقبول ، ولكنها كانت ترمى الى السمو بهذا البطل والارتفاع بأعماله الى ما يجعله خارقا في حساب الاحداث ، متجاوزا في مقادير الضوابط التي استطاع ان يحققها الانسان في حدود قدراته ومجال نشاطه المعروف .

فالسيرة في ظل هذه الحدود تختلف عن الملحمة وتبتعد عن الاسطورة لاسباب جوهرية تتعلق بنشأة كل من تلك الفنون ، وتتصل بالظروف الخاصة التي ترعرعت في ظلها ، أو تحددت احداثها في اطارها ، أو تحرك ابطالها فى مجالها . وهذا ما جعل السيرة تدخل في مجال الخصوصية القومية ، وتحرك في دائرة الاعمال التي عرفها الجمهور ، وتتحدث عن القيم والمثل والتقاليد التي سادت الوطن في تلك الفترة ، ولهذا وجدت احداثها في النفوس صورتها وتعلقت بها ، وتحسست في مسالكها اعماق وجودها فانطلقت ترويها بشغف ، وتستمع اليها بلهفة ، وتتابع وقائعها بتوثب ، وتدافع عن ابطالها ومواقفهم بما يثير الحماس ، ويدفع الى الجدال الحاد والمناقشة المثيرة .

لقد حاول كتاب السيرة أن يوفروا لها كل اسباب النجاح وعوامل التشوق ، كما حاولو ان يصنعوا لها الاطار الروائي ويحشدوا لها من سلسلة الاحداث مايجعلهامترابطة الحلقات، متفاعلة التأثير،تستمد عناصرها من العوالم الانسانية المحيطة بها ، وتستل اخبارها من الوان الحياة المختلفة . وتعكس احداثها صور الصراع الحيوي وما تجابهه مشكلاتها في ضروب الواقع الحياتي ، وكانت في اغلب معانيها تحاور العواطف التي كانت تتحرك بموجبها مشاعر الجمهور ، وتطرح البدائل التي كان يتعلق بها ، ويتأمل ظهورها أو يتوقع حدوثها ، وكما كان اولئك الكتاب يحاولون تأكيد ذلك من خلال الوصف الدقيق الذى يحاول ربطها بتلك الصور أو شدها بالاسباب القادرة على استجلاء المضامين المطلوبة . لان السيرة بكل اشكالها كانت لوحة

متميزة من لوحات الحياة أو صورة لواقعها وحقيقتها وهذا ما دفع اصحابها الى ان يجعلوا سيرهم تفسيرا لتلك الحقيقة أو رمزا لذلك الواقع وهذا ماجعل صلتها قوية ، وعناصر تجربتها الانسانية خالدة ، لانها استطاعت ان تقدم الصورة الدقيقة لمعاني الحياة بكل ما فيها من مطامح ، ويسودها من اوضاع ، ومشاهد . وقد برهنت كتب السيرة على اتساع مجال كتابها ، وانفراج الزاوية التي كانوا ينظرون منها الى الحياة . واتساع الدائرة التي كانوا يتعاملون من خلالها مع معطياتها . كما استطاعوا ان يحركوا شخوصها حركة حية ، وينقلوا اعمالهم نقلا محسوسا . وقد لازمت هذه الحركة اولئك الشخوص طوال المدة التي استغرقتها السيرة وبقيت ظلالهم حيّة في الذاكرة ، واعمالهم ماثلة في الذهن وخوارقهم متألقة في الخيال .

لقد اكدت السير اعتمادها الاساس على شخصية واحدة واعتبرت هذه الشخصية هي البؤرة التي كانت تتجمع حولها الاحداث وتتوزع منها الاعمال وتتحرك في اتجاه قدرتها كل الافعال الثانوية التي تتصل بهذه الشخصية بشكل مباشر أو غير مباشر . ولم يكن اختيار تلك الشخصيات اختيار عابثاً ، أو التقاطاً غير مدروس . وانما كان الاختيار يوحي بالتفكير المنطقي والتوجه المدرك والاختيار الذي يحقق الاهداف المرجوة ، لان انتقاء البطل في تلك المرحلة كان أنتقاءً يخضع لعوامل كثيرة منها ما يتصل بطبيعة تكوينه النفسي والاجتماعي . ومنها ما يتعلق بخصائصه الخُلُقية والخَلْقية، ومنها ما يتصل بعلاقته بأبناء قومه من جهة وبغيرهم من الاقوام من جهة أخرى الى جانب العوامل الاخرى المتعلقة بظروف المرحلة التي تمر بها الامة ، وتطلع الجمهور الذى تكتب اليه السيرة ، وطبيعة الحياة العامة التي تقدم من خلالها احداث السيرة. لهذا كله كان اختيار شخصيات السيرة اختيارا موفقاً، ينسجم وظروف الحياة ويتفق مع البيئة السياسية والفكرية والاجتماعية التي يمر بها الوطن العربي ولعل شخصية عنترة التي اختارها كاتب السيرة تمثل النموذج المختار في هذا الميدان، فعنترة عربي انجبته الجزيرة العربية، فنشأ فوق ربوعها ،

وتأثر بخصائصها ، وطبعت حياته بحياتها ، واكتسب من فضائلها ما جعله نموذجا فريدا ، ومثالا يقتدى به ، وصوتا يستجاب لدعوته ، وعنترة صورة الوجه العربي الذى بدأت تحاصره الدعوات المناهضة ، وتفوت عليه الفرص وتدفعه عن الدائرة التي يتحرك فيها ، وعنتره يمثل البطل الذى جابه الروم فانتصر عليهم . وقاوم الفرس فخضد شوكتهم او تجاوزهم الى الشعوب الاخرى فكان له في كل قوم موقف ، وعند كل ارض معركة . وهي محاولة لاثبات قدرة الشعب العربي ، وتأكيد امتداده التأريخي ، وتثبيت دعائم وجوده الاصيل . لمجابهة كل الدعوات التي تطلق ، وايقاف كل التجاوزات التي كانت ترتفع تحت شعارات مختلفة . ودعوات متعددة .

لقد استطاع كتاب السيرة ان ينجحوا في اختيار النموذج . ويوفقوا في تحديد طبيعة المرحلة . ويتحركوا في اطار الاحداث التي كانت تحيق بالامة ، واستطاعوا ان يسجلوا لسيرهم المدى الزمني الطويل الذى جعلها دائمة البقاء ، خالدة الذكر ، لانها كانت تلامس الشعور القومي وتحقق الذات العربية ، وتعيش الحدث الانساني . لانهم كانوا على ثقافة واسعة بعلوم العصور التي عاش فيها أصحاب السير وقد مكنهم ذلك من اعتماد حقائق التأريخ التي وقفت عندها كتب التأريخ . واعتماد اخبار الادب التي اشارت اليها كتب الادب الى جانب الاحاطة بالاجواء الاجتماعية والثقافية والفكرية التي عرفتها تلك العصور وعاشت في اذهان ابنائها ، ووقفوا على كثير من الاساطير التي اخذت دورها فتناقل الجمهور اخبارها ، وروى احداثها ، واعتقد بما جاء فيها .

لقد تحرك كتاب السيرة تحركا شاملا . فاعتمدوا الاخبار الدقيقة لحياة كل بطل وانتفعوا من الملابسات التي رافقتها . والمسائل التي اثارت كوامنهم، والمواقف التي حاولت ان تضعهم في المواقع الحرجة . فاستخدموها احسن استخدام واتخذوا من وقائعها أسباب استثارة . ومن دوافعها عناصر تشويق ومتابعة . كما اعتمدوا الاحداث الكبيرة التي عاصرت حياتهم وكانت اثارها

معروفة . لوضعها في متناول اليد ، واستخدامها في ترويج الهدف المرتجى ، والانتفاع منها في توثيق بطولة صاحب السيرة وترسيخ صورته في اذهان الجمهور ، وتوسيع مجال اعلامه ليصبح اسمه على كل لسان ، ولتعرف بطولته في كل مدينة أو قرية . ولتتسكن اعماله في كل قلب ، ولم تغرب عن بال اولئك الكتاب الشخصيات التأريخية الفذة التي اشارت اليها كتب التأاريخ وعرفتها سوح القتال . وشهدت لها وقائع الايام ، ليتخذوا منهم انداداً للبطل . أو خصوماً سرعان ما يقرون له بالخضوع ويدينون له بالولاء . وبذلك يكون المؤلف قد عرف مهمته منذ السطور الاولى فدرس الاطار الزمني والمكاني الذى يحدد للبطل الحركة . ويوجه في ضوئها الاحداث . ودرس ابعاد الشخصية وفهم المظاهر التي يتميز بها ، ووقف عند كل مرحلة من مراحل حياته وما اعتراها . والعوامل المؤثرة فيها . وتابع الواقع النفسي والعوامل التي تداخلت في بناء حياته واثرت في توجهاته وطبعت اعماله . وقد انتفع كتاب السيرة من المضامين السياسية التي سادت العصر فاستخدموها في الدفاع عن الشخصية العربية . والوقوف بوجه كل الحركات المناهضة وتأكيد الذات من خلال الالتزام بالقيم الاصيلة والدفاع عنها . والدعوة الى ترسيخ احوالها في كل مجال . وانتفعوا من المضامين الاجتماعية التي كانت تمثل موقفا اجتماعيا محددا . يدافع عن القيم السائدة ، ويدعو الى التمثل بها والحفاظ على اصولها . والوقوف على الواقع الذى بدأت فيه الفئات غير العربية تتحكم بالعنصر العربي وتظهر عداءها السافر للامة ، وتبدي مواقفها المناهضة لكل تطلع . بعد ان تسنمت المواقع المتقدمة ، واخذت المراكز الاولى ..

وهذا ما حمل كتاب السيرة على ان ينقلوا هذا الواقع بعد ان اضافوا الى ابطالهم ما جعلهم قادرين على مواجهة هذا الواقع والتصدي له بما يتناسب مع ظروفه ويتفق مع قدراتهم ويحقق للجماهير المتطلعة رسم الصورة المطلوبة . ووضع الشكل المناسب الذى يعطيها قدرة التحرك ويمنحها سطوة

التحدى ، ويرفع في نفسها نزعة التجاوز على ان هذا الوضع الاجتماعي لم يغفل العامل الديني الذى مهد لانتصار الابطال ومكنهم من المجابهة .... ورفع منزلتهم في نفوس الآخرين الذين خذلهم الايمان واضعفهم الاعتقاد الراسخ الذي كانت تؤمن به تلك الفئات . ولم يغفل عامل المرؤة الذى أكد حق الدفاع عن الضعيف واغاثة الملهوف واطعام الجائع ونصرة الظالم ورفض الضيم والدعوة الى مجابهة الاعداء . وجمع الشمل وتغليب عنصر الخير ، واسكات صوت الباطل وغيرها من القيم التي تمثلت في المواقف الانسانية الواضحة ، الى جانب الزوايا الاخرى التي تحدثت عن المرأة والاسرة والعلاقات الاسرية وطبيعة الصداقة التي كانت توثق بين الافراد ، وتشد بين الاصحاب .

ايام العرب

تشكل أيام العرب ينبوعا ثرا من ينابيع المواهب ومصدرا خصبا من مصادر التأريخ ، لما حفلت به من وقائع . وتلونت به من احاسيس وتضمنته من وجدان تمثل في سلوك رجال الايام والصراع الذى دار حولها ، والنشاط الثقافي الذى جسد وقائعها وأوفى احداثها . وضربا قصصياً متقدما في الاعداد ، ومتكاملا من حيث البناء ومستوفيا من حيث العناصر القصصية التي تعطي القصة عوامل نجاحها ، وأسباب قبولها واستمرار الاستماع اليها والتمتع بما تقدمه من مأثور القيم ، وبارع المواقف ، وجميل الكلام لانها استطاعت ان تحمل المضامين السلوكية الخيرة ، والانماط الحياتية التي زخرت بها الحياة ، والتقاليد التي توارثتها الامة فكانت صورة لطبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم ووثيقة من الوثائق التي سجلت ما كان يشوب تلك العلاقات من احوال ، ويعتريها من تداخل ، ويتداخل فيها من مواقف ، ومجالا رحبا من المجالات التي تحدثت عن طبيعة العلاقات الفردية والقبلية وما كان يترتب عليها من آثار ..

ويمكن اعتبار ابي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى في حدود سنة ٢١٠ للهجرة من اوائل الرواة الذين اهتموا بأيام العرب ، الى جانب اولئك المؤلفين الذين وقفت كتبهم على بعضها أو ذكرت جزء منها وهي تعرض لشرح قصيدة أو تشير الى واقعة أو تتحدث عن شخص ذكر في بيت شعر ، ومن المعروف ان اخبار الايام قد نقلت من جيل الى جيل وانتهت الى الكتب المدونة التي نقلها الرواة الاوائل امثال ابي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي ويونس بن حبيب ومحمدبن هشامبن السائب الكلبي الراوية وخلفالاحمر[1] . ولابد ان نلاحظ ان مسألة الايام ومتابعة أصلها والنظر في الطريقة التي تجمعت بها والذهاب وراء العناصر التي شاركت في تحقيق جمعها أو توحيد اخبارها تحملنا على اعادة النظر في الاصول التي اخذت منها أو المؤلفين الذين وضعوا خطوطها العامة أو الاجيال التي تحملت اعباء روايتها . وتوثيق مضامينها ، واسناد حقائقها . وربما يحملنا ذلك على تجاوز العصر والانتقال الى عصور أقدم ، وروايات اوسع تتصل ببدء الخليقة من جهة . وبأخبار الامم البائدة وما جرى عليها من جهة أخرى . وقد ظلت الاسفار والملاحم وما دار حولها من اخبار وقيل بشأنها من اقوال خالية من ذكر أصحابها ، لانها في الغالب خضعت لاعتبارات سلوكية محددة وتقاليد اجتماعية سائدة تعارفوا عليها والتزمت بها تلك المناهج التي ضمتها كتب السيرة والمحتوى الثقافي الذى اتصفت به وطبيعة المسيرة التي مرت بها وعبرت عن طبيعتها على ان هذا لا يخرجها عن الخصوصية القومية التي كانت تحملها والطابع الانساني الذى تسعى من أجل تحقيقه . وهذا ما جعل الايام واضحة متميزة ، لانها استوعبت الفكر العربي . وعبرت عن المضامين الاجتماعية التي طبعت المرحلة بقيمها الخاصة . وحددت لها طريق التوجه . الذى لم يخرج عن الاداب السامية التي ظلت بقاياها تتحرك في الدائرة العربية بين الجزيرة ووادى الرافدين والبقاع الاخرى التي توجهت اليها حركة الانتشار العربي .

---

(١) د. عادل البياتي . ايام العرب . ب/٢٣ .

وعندما بدأت عملية التدوين التي بدأت في نهاية المائة الثانية للهجرة ومطلع المائة الثالثة كانت الايام والسير والشعر من جملة ما بوشر بتدوينه لانها تشكل المادة التي استخدمها المفسرون واللغويون اعتمدوها في تعليل بعض الاسباب وتفسير جانب من الاحداث التي كانت تعرض لهم وقد مرت عملية الجمع بأطوار متعددة وخضعت لضوابط ومقاييس شديدة لان الرواة كانوا لا يكتفون بالسماع وانما يذهبون الى الصحراء ويدخلون في اوساط المجتمع ليتوثقوا مما يروونه من اهل البادية ويفدون الى الحواضر لاستقصاء الرواية الصحيحة ، وسماع الخبر الموثوق واستجلاء الحقيقة الواضحة ، فهذا ابو عمرو الشيباني يدخل البادية ومعه أدوات الكتابة فما يخرج حتى ينفد بما كتبه عن العرب[٢] وكان هؤلاء العلماء يأخذون عن غير الاعراب من الرواة واصحاب الاخبار اخذ سماع من افواههم لا اخذ قراءة من كتبهم كما كان يصنع الجاحظ .

ولقد دخلت الايام هذا الطور من الجمع ، فبذلوا من اجلها الجهد ، وتابعوا القبائل ، وتمكنوا من الوقوف عليها من منابعها الاصيلة ، ودققوا في صحتها تدقيقا متكاملا ، ولكنها عادت مرة اخرى الى الضياع ، وبقيت بقاياها متناثرة في كتب الادب ، ومجاميع الشعر ، ووقائع التاريخ .

لقد كان عصر الدولة الاموية عصرا ثقافيا خصيبا ، فقد انتعشت فيه رواية الاخبار والاشعار ، وازدهرت حركة التشجيع بعد ان اخذ الخليفة الاموى معاوية بن ابي سفيان يستقدم القصاص ، ويستمع الى رواياتهم ويطلب تسجيل ذلك وهذا ما جعل حركة الاحياء الادبي تأخذ شكلاً جديدا ، وتتميز بخصائص فرضتها طبيعة العصر ، وحققها المنهج العلمي الذى بدأت خطوطه تتضح وعلاماته تتبين واتجاهاته تستقيم فقد ازدحم العصر بالمحدثين والرواة وكتاب السير ورواة الايام والاشعار ولكن هذا العصر لم يحرم من التحرى الدقيق في المتابعة ، والتخوف الشديد من

---

(٢) الانباري . نزهة الالباء /٦٣ .

الاختلاط . وقد دفع هذا التخوف الرواة الى ان يحصروا في أطار التردد في بعض الاحيان . والاحجام في الاحيان الاخرى . لان مسألة الحرص على سلامة الحديث . والخشية في الابتعاد عن الوضع الذى اخذت تتسرب بعض حالاته الى الحديث . حملت الرواة ـ وهم من رواة الحديث ـ على ان يتهيبوا من الوقوع في دائرة الخصومة . والانزلاق في مدارج الصراع الفكري الذي دفعته حركة الاحياء ، وخلقته عوامل الاجهاد .

لقد وقفت حوادث الايام عند كثير من القضايا التأريخية . ووقفت عند جانب كبير من التقاليد والاساطير التي تخللت تلك الايام أو حدثت فيها أو قامت بسببها . وهي اخبار حملت الموروث الادبي والثقافي والحضارى للاجيال التي سبقت اجيال الايام . وهي صور لمعايشات مارستها تلك الاقوام ودافعت عنها والتزمت بها او خضعت لظروفها فالقصص التي تقدمها هي ليست بالضرورة قصة فريدة وانما قد تكون نموذجا لقصص اخرى مثيلات لها عرفتها الاجيال الا ان الزمن الطويل قد اختزل احداثها . وضيق دائرتها، ووقف عند معالمها البارزة . أو عالج جزئياتها الباقية . ومثلها يكون الحديث عن التقاليد والوقائع والمعتقدات . الى جانب كون هذه القصص قد تحدثت عن أمم بادت وشعوب لم يبق منها اثرا . الا ان ما علق في اذهان الناس من اخبارها قد اضاف الى هذا الموروث ما جدد فيه نوازع الالتقاء مع تلك الاحداث . ورسخ في تقاليده ما جعلها صورة لتلك المسيرة التي قطعتها الاجيال وهي تتحرك فوق ارض الجزيرة أو تنتقل الى اطرافها الشرقية أو الغربية .

ان ذاكرة الايام قد حفلت بالاحداث العظيمة . والتقت في حديث رواتها الحقائق الضخمة التي تعرض لها الشعب العربي . وقد ظلت بقايا تلك الاحداث تتحدد فوق قساتها شعائر وطقوس . تقاليد أو معتقدات . مظاهر حياتية أو مجابهات حربية وتعتلي صفحتها رموزا متأثرة أو اشارات مطموسة، تشير اليها حادثة أو تسر من خلال حكاية . أو تدور في نطاق مثل . كما جاء

ذكر المعمرين في يوم البؤس وزرقاء اليمامة ونسر لبد في شعر النابغة ، وتأثير انهيار سد مأرب في ايام الاوس والخزرج ، واخبار الزباء وجذيمة تأخذ مجالات واسعة وامثالاً كثيرة تتمثل في يوم اليمامة . اما طسم وجديس فلها صلة وثيقة بأخبار آداب العالم الاخرى ، وهذا ما جعل الايام عالما متحركا يفيض بالحياة ، والوقائع ، ويتجدد بالقصص والحكايات ، ويمتلىء بالامثال والمواعظ وهي بالتالي تشكل الامتداد التأريخي للحقائق التي مرت بها هذه المنطقة وصورة حية للواقع الاجتماعي الذى كان ينشر ظله فوقها لان هذه الجزئيات الصغيرة التي تقف على جملة من الاحداث المحددة ، تكشف عن الحد التأريخي الذى كانت تمر به .

لقد بقيت الايام بعد ان فقد كتاب ابي عبيدة الذى يعد اوسع موسوعة للايام متناثرة ومتباعدة ، لتفرقها بين كتب التأريخ والادب واللغة حتى اوشك الناس ان يعزفوا عنها لما داخلها من اقوال واضيف اليها من احداث اخرجتها عن حقيقتها الموضوعية ، وابعدتها عن الهدف الذى من اجله جمعت. والذى ينظر اليها من خلال النظرة الاستقصائية بعد تأمل بنائها المتكامل ، ومحتواها الثقافي ، ومعانيها الدقيقة التي عبرت عن مضامين الحياة ومشكلات الواقع الاجتماعي يجدها احداثا روائية متصلة ، ونسقا اخباريا متداخلا ، وتسلسلا فنيا متكاملا وهي بالتالي ليست مشتتة ، او اخبارا متفرقة ، أو نصوص شعر لا يربطها رابط أو يصل بين اطرافها موصل[٣] واذا تحقق لهذه الايام ان تأخذ تسلسلها التأريخي ، وتدرج في الاطار الذى وضعه فيها ابو عبيدة وفقت على نسق روائي متسلسل واكتمال احداث متتالية وتعبير قصصي متقن.

ولعل يوم ذى قار الذي سجل للامة اروع انتصار يعد النموذج الرائع في سلسلة الايام لانه عبر عن المضمون الحقيقي لفكرة الايام والذي يلتقي في بعض وجوهه مع فكرة السيرة لانه يتصل بالقضية الكبيرة التي تتعلق

---

(٣) ينظر كتاب ايام العرب للدكتور عادل البياتي / بغداد ١٩٧٦ وهو دراسة واضحة وتوجه سليم في وضع هذه الايام في موضعها المناسب .

بحياة العرب وبكفاحهم المرير من أجل لم الشمل المبدد ، واعادة الكيان المنقسم . وتوحيد الجهد المتناثر . منذ اواسط الالف الاول قبل الميلاد يوم حاول (كورش) عاهل الفرس ان يقتحم بابل لينهي وجودها ويزيل معالمها ويبدد شمل شعبها. لانه كان يعتقد بأنها الحلم السعيد وارض الميعاد. وقبلة الدنيا ولكن محاولة التحدى التي قام بها هذا العاهل الفارسي جوبهت بتحد اقوى . وقوبلت بعناد اشد ونضال مسلح لرد الجيش المعتدى ، وايقاف الزحف المغير . حتى استطاعت تلك القوى المؤمنة ان تستعيد بعض الارض . وتبعد الغزاة عنها الى أمدٍ من الزمن ولكن المطامع الغادرة والتطلع الذى كان يحاول ان يمتد الى كل ارض عربية ظل يبسط سلطانه لاحكام القبضة وقد تمكنت قوى الغزو من تثبيت اقدامها فوق ارض العراق الا ان النصر المؤزر الذى حققته جيوش التحرير وهي تنطلق ثانية من الجزيرة قد حقق لهذه القوى المؤمنة ان تحرر الارض في عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وعلى يد القائد المظفر سعد بن ابي وقاص وفوق ارض البطولة القادسية الجريئة. على ان الوان المقاومة لهذا التطلع كانت تأخذ اشكالا متعددة. للكفاح وصوراً مشرقة من صور التضحية استطاعت ان توحد بين اطرافها الايام لتلتقى في التوجه الموحد من كل اطراف الجزيرة عند ارض السواد التي تشكل المسر الحقيقي لاستعادة الارض وتخليص الانسان وتحرير الثروة . وفي هذا الموقع يقف ثانية يوم ذى قار ليضع العلامة الكبيرة التي ارتسمت على خطة التوجه ، ويحدد الطابع الانساني الذى كانت تسير بموجبه هذه الجيوش المؤمنة لتجابه القوة الغازية وتسحق الفلول المنهزمة وتمسح عن وجه هذا الوطن كل العلامات المشينة عقيدة وتحريرا وتعريبا .

لقد جسدت ملحمة ذى قار عمق الرفض العربي لاحكام التسلط الاجنبي والترابط المصيرى بين ابناء الامة عندما تشتد الازمات وتحتدم الخصومة ويستهدف وجود الامة والنزعة التي تدفع كل المؤمنين ، والمروءة التي تستثير كل الكوامن الأصيلة والخوافق التي تتأجج في كل القلوب

الصادقة . وهنا تتدافع الايام نحو نقطة البداية ، وتتزاحم الاحداث لتضع خطر المجابهة وتحدد نقطة التأزم ، وتشير الى ساعة اللقاء فكانت بدايات ذى قار الذى بدأت طلائع يومه تفرز من خلال الصيحات العربية الغاضبة والتحالف القبلي الواعي .

لقد أكد يوم ذى قار الارهاص الحقيقى للفجر المشرق الذى امسكت به اليد العربية فكتب للتأريخ ان يعود مرة اخرى ليحمل أبناء الامة قيم الشرف والوفاء ومثل التضحية والاباء الى العالم كله بعد أن انبثق فجر الدعوة . وارتفعت راية الجهاد لتحرير كل الارض واعادة بناء الانسان الجديدة الذى دعت اليه رسالة السماء .

لقد احتفظت الايام بذكر الابطال الميامين الذين قادوا الجموع الزاحفة فكانوا نماذج في القيادة . وضربوا لها أروع الامثلة فكانوا ابطال مجد وحماة ارض . ودعاة عقيدة وبقي البطل في هذه الايام يستمد صفاته من صفات البطل العربي النموذج ومن مظاهر الشرف العربي الاصيل وقدرة الانسان المتمكن وجرأة المقاتل الفخور .

لقد عودت الحياة الانسان على أن يكون قويا . وحملته على أن يمارس كل الاساليب التي تجعله قانعا بما يؤكد في نفسه أسباب هذه القوة لانه كان يدرك أن الضعف في حد ذاته فناء . وان الهزيمة التي تكتب عليه في كل معركة تعني خضوعه لكل عوامل الاستخذاء . وارتماءه في مهاوي الذل . وقبوله بكل ما تفرضه عليه ارادة المنتصر مهما كانت هويته . وقد دفعه هذا الشعور الى أن يظل دائما في حالة توثب . وان تظل اسلحته مهيأة ، وقادرة على الرد الحاسم . وان تبقى عناصر وجوده وصلات ارتباطه بمن يشعر بوجودهم القوة حقيقية . وعلى قدر من الاستعداد وقد حفلت صور الشعر بهذه المظاهر التي عبر من خلالها الشعراء عن الاندفاع وراء النصر والتفاني من اجل الحقيقة والدفاع عن وجود القبيلة والاحتفاظ بصلاتها واحلافها . وما يترتب على هذه الصلات من تقاليد لتبقى محتفظة بكل مقوماتها ، ولتظل

عناصر شدها قائمة . ان هذه المعاني تمثلت في أبواب الشعر واتجاهات الشعراء . ودلالات المعاني التي وقفت عند كل معنى فكانت أبواب الحماسة موزعة بين الانفة والامتناع من الضيم والخسف وركوب الموت خشية العار، والتشمير عند الحرب ، وذم الفرار ، والتعيير به ، واستطابو الموت عند الحرب وغيرها من الابواب التي مجدت الموت فصورة البطل عند لقيط تتمثل في قوله(٤) .

فقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذرع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده ... ولا اذا عض مكروه به خشعا
مسهد النوم تعنيه ثغوركم ... يروم منها الى الاعداء مطلعا
ما انفك يحلب در الدهر اشطره ... يكون متبعا طورا ومتبعا
وليس يشغله مال يثمره ... مستحكم ولا ولد يبغى له الرفعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم السن لا قحماً ولا ضرعا
عبل الذراع أبيا ذا مزابنة ... في الحرب لا عاجزا نكسا ولا ورعا
مستنجدا يتحدى الناس كلهم ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

والبطل المعول عليه عند تأبط شراً يكون بصيرا بكسب المحامد ، وسباقا الى غايات المجد جريئاً في اقتحام الاهوال . ذا رأي صائب وكرم واسع وفضل في الامور وحب في الحركة وبُغضٍ للدعة والخدر(٥) .

لكنما عولى ان كنت ذا عول ... على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد في عشيرته ... مرجع الصوت هَدّاً بين أرفاق
عاري الظنابيب ممتد نواشره ... مدلاجِ أدهم واهى الماء غسّاق
حمال ألوية ، شهادة انديةٍ ... قوال محكمة ، جواب أفاق
فذاك هبي وغزوي استغيث به ... اذا استغثت بضافي الرأس نعّاق

---

(٤) لقيط بن يعمر ، الديوان ٤٦ ــ ٤٩ .
(٥) المفضل الضبي المفضليات ١/٢٧ .

أما عند عروة بن الورد فصحيفه وجهه بيضاء ناصعة ، يقضي حياته في العمل والكفاح والمغامرة يعلو خصومه ، ويستقبل الموت حميدا[٦] ..

ولكن صعلوكا صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على اعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
فأن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف اهل الغائب المتنظر
فذلك أن يلق المنية يلقها حميدا وان يستغن يوما فأجدر

وتظل حقيقة البطل عند كل الفرسان اشكالا تدور في اطار هذه المعاني وتدخل في دائرة الجانب الاخلاقي والبطولي لانهم يؤمنون بهذه الخصائص التي أصبحت لونا متميزا ، وصوتا مسموعا . ونموذجاً اجمعت على خصائصه الامة ووجدت في اعماله امالها الكبار وغاياتها المنشودة .

وعالج المثل الحياة باشكالها . والواقع بأحداثه . فلم يترك بابا الا طرقها ولا موضوعا الا افاض فيه . ولا صفة الا وقف عندها ، وهو في هذه المعالجة قد أدى مهمته في الالتزام لانه اعتنى بجانب التوجيه ، واخذ على عاتقه الرعاية ، وساير جنبا الى جنب توعية المجتمع الى ما يحيق به من أوضاع اخلاقية وخلقية ، وكان يدفع الناس الى تحسين اوضاعهم ، ويدعوهم الى تجنب كل ما يفسد عليهم نعم الحياة . كما كان يبث في نفوسهم الصورة المثلى في كل باب ، ويدعوهم الى الاقتداء بالنموذج الامثل . ليخلق الجيل الصالح . والمجتمع الافضل الذى تسود فيه العدالة . وتمحق عنده اثار العبودية . وتموت النوازع الشريرة .

ان دراسة المثل في الادب العربي تحتاج الى دراسته من الوجهة النفسية والاجتماعية والتربوية ، لانه اقرب اليها ، والصق بتجربتها ، وربما استطاعت امثال هذه الدراسات من ابراز جوانب أخرى اغفلها الدارسون ، لانها تعتمد التحليل الداخلي وتستبطن الاحاسيس التي تحيط بالحدث وتتلمس

---

(٦) عروة . الديوان . (صادر) ٤٤ ـ ٤٥ .

الهواجس والانفعالات التي يقف عندها ، ومن خلال ذلك ترتسم صورة جديدة . وتعلو صيغة داخلية ملموسة ، يهتدى اليها الدارسون ، ويمكن الاعتماد عليها في دراسة تلك المجتمعات دراسة معاصرة ، والوقوف عند نزعات النفوس ورغباتها ، وفي مثل ذلك اضافة موضوعية جديدة ترفد الباحثين بما غاب عنهم وتضع امامهم من الحقائق المجهولة مايمكن في ضوئها اظهار ملامح ظلت بعيدة عن انظار الدارسين امادا طويلة ..

ومثل ما كانت الامثال ملتزمة في تقديم الصورة الواقعية للمجتمع العربي . وكانت معالجتها الموضوعية سليمة كانت المقامة صورة أخرى من صور الالتزام الواقعي ونموذجا قريبا من نماذج المعالجة المباشرة لكثير من الظواهر التي اعترت الحياة واصبحت جزء محسوسا منها ، لانها ارتدت رداء القصة ، وتمثلت احداثها ، وحددت مكانها بالمجلس ، وزمانها بالغرض، واتخذت لها طابعا متميزا ، وخططت لموضوعها اتجاها اقتصر في اغلب الاحيان على الكدية (الاستعطاء) . وما يدور في هذا المجال من أحداث ، ويدخل فيه من اساليب . وتستحدث فيه من وسائل ، وقد بدأ هذا الفن يستقطع شرائحه من واقع الحياة العملية ، ويركب عناصر تكوينه من موافقات واقعية ، يراها الناس متباعدة ، وتروى لهم على شكل قصص . وقد أوشكت المقامة ان تكون قصة في كثير من جوانبها لانها تستخدم الحدث . وتحدد النتيجة . وتستهدف المعالجة ، وفيها الشخوص القادرون على ترتيب الحوار . وفي ثناياها تكمن العقدة التي تحاك حولها المقامة .

وقد اتخذ منها اصحابها مجالا لعكس الواقع ، ومعالجته ، وتصوير الاحوال ونقدها ، ومجالا لاظهار براعتهم الادبية في الصنعة اللفظية واللغوية، فاستطاعوا حصر غايتها ، وقد ادى هذا التضييق في الغاية والوسيلة الى براعة فنية فريدة . وابتداع لفظي يوحي بالاقتدار والابداع . وترك لنا ثروة في هذين المجالين ، كما كان هذا الفن محفزا واضحا في تطوير فن الرسم واستخدام اشخاص المقامات استخداما حدد اشكال صورهم ، وحركات

اجسامهم . وتقاطيع وجوههم . كما حدد لنا الاشكال الحضارية المستخدمة، والملابس المستعملة . والالوان المألوفة . كما حدد لنا طبيعة العلاقة التي ارتست خطوطها من خلال التعامل الفني وهذا يعني ان الرسم قد اخذ وظيفته في تحديد شخوص المقامة . وهو اشارة اولى من اشارات الالتزام الذى وظفه الفنان العربي . وادخله في نطاق المعالجة الاجتماعية . فالتاجر والحمال والبائس والبائع والمرأة العجوز ومواكب الافراح والحج كلها اصبحت موضوعات بارزة من موضوعاتها .

لقد كان فن المقامات ميدانا لتجربة الفنان العربي ، وعنصرا من عناصر ابراز قدراته ، وباعثا من بواعث نبوغه وانطلاقه لانهم وجدوا في حوادثها تجاوبا لما أرادوا ان يعبروا عنه وموضوعات فتحت آفاقا جديدة لفنهم فالاحتفالات والمواكب والندوات والاسواق والباعة كلها تركت لخيالهم أن ينطلق ولقابلياتهم أن تبرز ولقدراتهم أن تستفيق لتعطي الصورة حجمها ، وتحدد قوتها ..

ولم يقف بعض هؤلاء عند زاوية من زواياها ، أو جانب من جوانبها ، وانما حاولوا استقصاء اجزائها ، ومتابعة دقائقها لانهم اعتقدوا بأن الصورة لابد أن تكون متكاملة ، وان الموضوع لايمكن أن يصور مبتورا ، لتكون قدرته على التعبير أقوى ، وتأثيره في النفس اوقع ..

ولعل يحيى بن محمود بن الحسن الواسطى الفنان العربي المتميز الذى حدد لنفسه طريقة خاصة كان من اوائل الفنانين الذين ابدعوا في المهارة، وبرعوا فيالطريقة . لابراز مظاهر التأثير . وتجسيد ملامح التعبير وقد انعكست هذه القدرة في امارات الفرح أو الحزن أو التعجب أو الدهشة، بدلالة النظرة . واشارة اليد . وحركة الجسم . .. كما تجسد لاول مرة في هذا التوظيف سلامة الفنان في اعطاء الصور قدرتها من خلال مزج الالوان . وطريقة استخدامها . وتحديد مواضعها مما ترك اثاراً فريدة في

مجال هذا الفن ... ومثل الواسطي أحمد بن جلية الموصلي • وابي الفضل ابن ابي اسحق • وغازى بن عبدالرحمن الدمشقي وآخرين غيرهم شاركوا في هذا الميدان وتركوا بصمات رائدة في هذا المجال •

ان اصحاب هذه المقامات لايمكن ان يخرجوا عن دائرة الالتزام اذا اردنا ان نحدد ابعاد هذا الالتزام ، ولا اغالي اذا قلت انهم يكونون من غلاة الملتزمين لانهم وظفوها توظيفا كليا لتصوير اوضاع المجتمع ، ونقد احواله ، والكشف عن المظالم التي يزخر بها ، والمعتقدات الباطلة التي احاطت به ، فايمان الناس بالتمائم واعتقادهم بقدرة هذه التمائم على العلاج . كانت موضوعا بارزا ، واستعباد الانسان وبيعه وتجارة الرقيق ورواجها، واستهلاك الانسان كانت موضوعا آخر •

ان اهمية المقامات لم تقف عند حدّ الوصف التحليلي للمجتمع العربي الذى عاصر مؤلفو هذه المقامات ، ولم تنته مهمة الفنانين الذين ابدعوا في نقل الصورة الواقعية الى اللوحة الفنية . وانما تجاوزوها الى عالم آخر كان يزخر بالحركة . ويموج بالابداع . ويزدهر بانواع الفنون التي اصبحت جزء من الحضارة العربية في تلك الفترة • وقد اعطى هؤلاء الفنانون هذا الجانب اهمية خاصة ، وأولوه عناية يستحقها • وقد استطاعوا ان ينفذوا من خلاله الى رسم العناصر المعمارية بطريقة حققوا فيها قدرة على التعبير . ووفقوا الى ابراز الجانب التعبيرى عن الافكار التي كانت تدور في رؤوسهم ، وان كانت هذه الاشكال بعيدة عن التفاصيل الدقيقة التي كانت تتداخل في هذه الاشكال المعمارية ••

ان المقامة أصبحت لوحةفنية متكاملة فيخيالالرسام العربي، واستحالت عبارات اصحابها الى نماذج بارعة ، استغرقتها افكار هذا الفنان ، وطعمتها ريشته التي استطاعت أن تضع بصماتها بقدرة وتمكن ، حتى برزت مظاهر العمارة بوضوح فكانت المساجد والمآذن والقباب وكانت المنازل والنوافذ

والباحات وكانت القاعات والخانات والحانات والاسواق وكانت الاشكال الاخرى التي عاشت في الواقع العربي ، صورا لها مكانتها ، واماكن لها موقعها . وقد ازدانت بالزخارف ، ولونت بالنقوش ، وحفلت بكل لمسة فنان . وازدهرت بكل خفقة بارعة وضعها باناقة فوق صفحة الصور الادبية وهو يحدد ملامح الفن ، ويدقق في اجزاء العمارة .. وكما كانت الاشكال الكبيرة تأخذ حجمها في زوايا واواسط الصورة فقد كانت الاشكال المعمارية المكملة تبرز بوضوح في الهيكل العام لها ، فالاعمدة عناصر استخدمها الرسام في تثبيت اللوحة . واستخدمها في تزيينها وزخرفتها ، وجعل قواعدها اشكالا زخرفية تتعانق فوقها المنحنيات ، وتشد اواسطها الاقواس . وتزين رؤسها الخطوط المتوازية ـ وكذلك المحاريب التي ظلت عنصرا واضحا في صور المقامات . والمآذن الاسطوانية الرشيقة التي اخذت امتدادها المتميز ، وشموخها الفني الرائع وهي تقف باباء وكبرياء ورشاقة ومثلها المحاريب والمآذن الابواب والشرفات ... والسقوف .. والعناصر المعمارية الاخرى المتداخلة في البناء والزخارف الهندسية والمنحنيات المتعاقبة والاقواس المكررة وهي استخدامات توحي بقدرة هذا الفنان، واستيعابه للعناصر ، واحساسه بالاجزاء الدقيقة التي تشكل ابعاد هذا الفن ..

ولم ينس الفنان وهو في غمرة الملامح المعمارية ان يقدم لنا الانسان الذى أراد أن يخلده في لوحاته ، لانه صاحب القضية ، ومبدع الخيال ، ومبعث الاحياء ، وقد منحه صاحب المقامة اولاً والرسام ثانيا حقه في اللوحة، وحقه في التعبير ، وحقه في الحركة المقررة . فقدم الرسام هذا الانسان وقد ارتدى زيه المقرر بكل اصنافه فالعمامة كان لها شكلها وكانت لها اصنافها وقد برزت بوضوح واستخدمت ببراعة ، والقلنسوة التي كانت تختفي تحت العمامة وقد اختص بلبسها نفر من الناس حددتهم احاديث المقامات ، والخمار والبرقع والطيلسان والجلباب والسروال والازار والجبة والنطاق والخف كلها اصناف وقفت عندها المقامة وابرزها الفنان بالوانها الزاهية واجزائها

الدقيقة ومواضع استعمالها المعروفة ، وقد شاركت هذه الصور في تحديد الهوية الحقيقية لطبيعة هذه الملابس لان اشكالها لم تصل الينا ، وانما ظلت احاديثها تدور واجزاؤها تتردد فهي وثائق مهمة في اثبات الحقائق ، وتأكيد الاخبار ، وترسيخ الصورة التي كان عليها الناس ..

ان اهمية الفنان اصبحت مشتركة ، واهمية الاديب اصبحت مرتبطة لان الفن خلد الادب ، وخلد معه الانسان ، وكلاهما ترك لنفسه براعة الاستخدام ، فكانت اثارهما غنية ، والتزامهما واضح المعالم وهما نموذجان من نماذج العمل الخالد الذى تعاونت على اخراجه قدرات الانسان العربي ، وهما عملان من اعمال التوافق الفني في اطار الدائرة الانسانية التي فقدت تعاملها في عصرنا الحاضر ، ونحن بأمس الحاجة الى انصراف الفن لتخليد الواقع وتثبيت الحركة الانسانية الخيرة وهي تصوغ الحياة ، وتبدع الفكر النير ، وتقدم النموذج ليقتدي به ، وقد آن له ان يأخذ دوره في معالجة الحاضر ، وترسيخ الحاجة الملحة ، من خلال اللون الزاهي ، والحركة المعبرة ، والتجسيد الواعي .

لقد صور النثر بشله ومقاماته وقصصه الواقع العربي ، وبالغ احيانا في تصوير ذلك الواقع ، لانه حاول ان يغور في اعماقه ، ويستبطن احداثه ، ويستكشف ما يدور فيه من وقائع ، متخذا منها نماذجه التي يستطيع ان يقدمها للمجتمع ، صورة محسوسة ، وواقعاً معبراً ، وصفحة تشرق من الوانها ما يمكن ان يكون عظة لمن يريد . ومن هنا كانت اقاصيص الف ليلة وليلة ادبا انسانيا معبرا ، ونماذج اجتماعية معروفة ، واحوال دينية لها ما يقابلها في الواقع ، وصور اخلاقية ، ألفها الناس ، واحداث اجتماعية وتأريخية واقتصادية تدافعت في خضم البيئة العربية لتأخذ حجمها ، وتؤكد وجودها ، وترسم واقعها فوق صفحاتها وتضع سماتها عند كل شريحة من شرائح المجتمع آنذاك ..

وقصص الف ليلة وليلة تنبع احداثها من حاجات المجتمع وترتسم وقائعها من خلال المتطلبات التي حددتها الحاجات ، والشعوب بطبيعتها تميل الى الاستماع الى السير لترى العبر التي وقعت لغيرها من الشعوب أو لاسلافها من الاقوام ، ولتأخذ منها الدرس ، وتنتفع من الخطأ ، وتتجنب الكوارث وهي احوال لها صلة بدراسة التاريخ ، وهذا يعني ان نشأة القصص هذه مرتبطة بنشأة الشعب العربي ، وموصولة بأحداثه التي عاصرها ، ولقيها التي سعى الى تحقيقها ، وبأنسانه الذى كان مدار هذه القصص وبطل تلك الحكايات والامثال . ولعل هذه النشأة البسيطة ، والصور الساذجة قد اتاحت الفرصة للقاص ان يدونها بسيطة وساذجة ، تضم احداثا محصورة ، والوانها من الحكايات محدودة ، ثم تناولها قاص آخر اضاف اليها ما وقع له من الاحداث الجديدة واخضعها لعنصر التجديد والصنعة ، وألبسها من اردية الخيال ما جعلها موافقة ، وهكذا تعاور عليها القصاص ، يضيفون ويزيدون ، يجودّون وينقحون ، ويظهرون من براعتها ما يضيف اليها عنصر التشويق ، ويبدعون في تهويل الاحداث ، ويستخدمون الخيال اساسا في حبك القصة ، حتى شكلها الذى وصل الينا ، واصبحت صورة من الادب الرفيع الخالد الذى عاش هذه القرون ، وترك اثاره على الشرق والغرب ، فعرف المستشرقون فضله وترجم الى التركية والفارسية والاردية والهندستانية ، الى جانب ترجمته الى الفرنسية والالمانية والانكليزية ، ولم يقف اثر الكتاب عند الترجمة وانما كانت اثاره العلمية والآدبية واضحة على اثارهم . وصرفوا جهوداً كبيرة للبحث عن اصل الكتاب الذى كان جمعاً لقصص متفرقة كتبت لتسلية العامة ، ورويت احداثها للتخفيف عن اعباء الحياة ، وامضاء الوقت ..

والذى نريده من هذا الكتاب هو مدى معالجته لاحوال الناس ، وتسجيله لاحداث الواقع ، وتقييمه تقييما سليما لتلك الاحداث .. وقد

حرص مؤلفو هذا الكتاب على ابراز الاحداث ابرازا دقيقا ، ومعالجة المشاكل معالجة شخصية ، وتحديد الجوانب التي شاركت في البناء الاجتماعي تحديدا يوشك أن يكون موفقا في كثير من جوانبه .

فالليالي وقفت في احداثها عند المرأة المحاربة ، والمرأة العالمة ، وكانت تحيط هذه المرأة باعمال بطولية ، قد تكون في بعض الاحيان قريبة من الخيال ، ولكنها تمثل طموح القاص في منزلة هذه المرأة وتصوره في المواقع التي يمكن أن تمثلها ، وهي تبدي في حربها مهارة تفوق مهارة الرجال، وتضرب في اقدامها امثلة من التضحية تصبح في اثرها رائدة من رواد المعارك ، أو صفحة مشرقة من صفحات الثبات والاقتدار وتمثل هذه الفكرة، فكرة الاعتداد التي شاعت في تراث الامة ، وادبها القديم وانعكست بوضوح من خلال الاعمال الادبية التي ازدحمت بها الليالي .

وتأخذ المرأة العالمة موقعها في الليالي ، لانها ظلت الصورة المرئية في الاخبار ، تحسن الكلام اذا تحدثت ، وتصوغ الاجابة اذا طلبت منها ، وتنفرد بالاخبار التي يطلب منها ان ترويها ، وتقول الشعر الجيد اذا استنشدت ، وقد وجد القصاص في هذه النماذج مجالا للابداع ، وفسحة لاستعمال الخيال ، وامكانية لاستحداث الاشكال التي توافق المجتمع وتنسجم مع الغايات التي يتصورها الناس للمرأة في ذلك العصر ، وهي غايات مشروعة ، تبررها قدرة المرأة وجرأتها ، وتحميها تجربتها في المواجهة، وتؤيدها وجهة نظر المجموعة البشرية التي آمنت بهذه الغايات والى جانب هذين اللونين كانت هناك الوان أخرى تمر عليها الليالي فالمرأة هي التي تشارك في تعليم الابن القرآن والحساب والفنون والادب . وهي مهمة تحدد للمرأة وظيفة ثقافية ، كانت تمارسها بشكل أو بأخر ، وهي مهمة شاركت في البناء الثقافي والحضاري للامة . وكانت صورتها نابضة بالحياة والمرأة التي تقف ناصحة وموجهة ، ترشد الابناء الى طريق الفضيلة ، وتمنعهم من التمادي

في دروب العبث واللهو والانفاق. وتحبب اليهم الصدق والوفاء والاخلاص.. ومن هنا كان دورها في الكتاب دورا مهما وبارزا في توجيه الاحداث وتأكيد الخصائص الاجتماعية التي تحرص عليها ، وتعميق الخط الانساني الذى اصبح سمة من سماتها ، لتحتل المقام المناسب والمركز المرموق ، ولتكون الاداة الفاعله في امتلاك زمام المبادرة في كثير من الاحداث ، ولتؤكد قدرتها في المجتمع ، ودورها التربوى في مجال البناء ..

لم تغفل قصص الليالي الحياة الاجتماعية التي سادت العصر الذى كتبت فيه ، أو اضافت الى الاخبار التي سمعها القاص وقد احيطت بأشكال من المبالغات ولكنها كانت تعرض لهذه الاحوال عرضا يحقق تأثير الحياة المعاصرة للقصة ولمؤلفها . من جهة . ويبرز ما في اذهان الجماهير من الاخبار من جهة أخرى ، فبغداد كانت لها صورتها التأريخية وان كانت تشوبها بعض صور المبالغات وتغطي بيئتها ظلال من الوقائع التي تلوح من خلالها غير مستقلة . ولطبقات بغداد اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، كما اخذت اخبار بلاطات الخلفاء وما سادها من بذخ ، واحاط حياة اهلها من ترف جانبا واسعا من هذا القصص الى جانب اساليب الحكم ومعاملة الرعية وما تداخل فيها من روايات اصبحت موضع اهتمام القصاص تمثلا بحكايات الخلفاء الراشدين الذين كانوا يخرجون في الليالي متنكرين ليتطلعوا على أحوال الناس ، ويستمعوا الى احاديثهم عن قرب ، ويعيشوا واقعهم الاجتماعي والاقتصادي البائس ، ويطيب لهؤلاء الرواة أن يستمروا في هذه الحكايات وصولا الى اهدافهم التي كانوا يتطلعون اليها ، فيحضرون اولئك الناس الى مجالسهم صباح اليوم التالي ليعيدوا على مسامع الخليفة في مجلسه وامام رجال دولته وحاشيته ما حدثوا به الخليفة المتنكر ليلا، فترسم على وجهه أمارات الرضا والاطمئنان ، وتبدو علامات العجب والاستحسان فيكرم المحسن ، ويعاقب المسيء ويسجن الظالم ، ويخفف عن هم المظلوم ،

ويطعم الجائع ، ويقضي حاجة المحتاج ، محاولا وضع الامور في نصابها ، وتسوية المسائل التي وقف عليها، وهي معالجة توحي بالتزام القاص بالجانب الاجتماعي البائس ، الذى حاولوا ان يبرزوه من خلال القصة ، ويؤكدوا تكرر صورته في كثير منها ، ليرسموا الواقع رسما ، وتتجلى براعتهم في استخدام الخليفة وهو المسؤول في الوقوف على هذا الواقع ، لتأكيد مسؤوليته ، وتحديد تحركه الوظيفي ، كما تتجلى في النهاية التي يختتمون بها القصة ، وهي نهاية تعالج ـ الى حد ما ـ جانبا من جوانب المجتمع ، وتكشف عن سلبيات أولي الامر ، وتبرز الهموم التي كانت تتعاظم في نفوس الناس وهم يصارعون الواقع .. وهي دراسة يمكن ان تكشف عن ابعاد اجتماعية لم يتلمسها الدارسون من خلال النصوص المجردة ، ولم يقفوا عند دخائلها من ثنايا السطور التي انتهت عند حدود الخبر ، أو سكتت عند نهاية القصيدة ، أو قطعت قبل ان ترسم الصورة .

ان ميزة الليالي واهمية دراسة هذه الميزة تتحدد من خلال رسم الصورة المتمثلة في اذهان الناس ، لانها كانت بعيدة عن الصورة ، وخارجة عن اطار الاحداث ، ولهذا ظلت جزئياتها خافية في أروقة الاحاديث البعيدة ، وضائعة في خضم الصورة المتزاحمة التي كانت تلف المجتمع آنذاك ، وان هذه الاهمية تحتاج الى دراسة النصوص المتناثرة في هذا الكتاب دراسة جادة ، ومتابعة الاخبار والاقوال والاستشهاداتوالتصورات متابعة متلاحقة، تربط بين الخبر ومدلوله ، والقول وما ينطوى عليه ، والاستشهاد ومايرومه، والتصور وما يحكي ثم تحليل ذلك وفق مفاهيم اجتماعية ونفسية تنتهي الى ابراز الجوانب بشكل علمي ، وفرز عناصر المجتمع فرزا يؤيده الشاهد ويثبته الدليل . وتستشف من احداثه طموح الجماهير التي كانت تجد في هذه القصص تجاوباً نفسيا معقولا ..

ولعل صور التجار والجواري والحكام تمثل المجال الفسيح الذي امتدت اليه أقلام القصاص وهم يفصلون هذه الصور ، ويطيلون في سردها ، ويدققون في كل حركة من حركاتهم ، وعلاقة من علاقاتهم ، وما يعتري هذه العلاقات ، ويؤثر في احكامها ، أو يؤدى الى اضعافها ، وقد انتقلت الى بيوتهم ، وتحدثت عن اولادهم ، وما يصنعونه في حالة الميلاد من عادات والتربية وما يصاحبها ، والحسد وما ينطوى عليه من نتائج ، واتقاؤه بالاساليب التي تعارف عليها الناس وما تركته في النفوس من آثار ، وانحدر مؤلفو الليالي الى المجالس الخاصة وما يدور فيها ، وبيوت اللهو الخاصة وما يجرى في اروقتها . وكيف تبدد الاموال ، ويقاد الشباب ، وتذبح الفضائل .

ومن الطبيعي ان يدخل التاريخ في حوادث الليالي ليضيف اليها بعدا جديدا ، ويحقق لها قوة دافعة تحببها الى نفوس المستمعين ، وتقربها الى مجالسهم ، ومن الطبيعي أن يسود الخيال هذا التاريخ ، ليجعله منسجما مع الرغبة التي كانت تعتلج في نفوس الجماهير ، ولكنه كان يحمل مهمة تخليد الابطال ، وتخليد اعمالهم ، وما سجلوه فوق صفحات هذا التاريخ ، وكانت اسماؤهم خالدة في خيال هذه الجماهير ، تذكرها باجلال ، وتتحمس لها باندفاع ، وتعيش معها البطولة والفروسية ، تحزن لحزنها ، وتتأثر لتأثرها ، تزهو اذا سجلت العمل الخالد والانتصار المؤزر ، والموقف الرائع ، وتصيبها الخيبة اذا شعرت بحراجة موقفها ، وضعف مركزها .

لقد ارتسمت المثل الاخلاقية في الليالي ارتساما يؤكد استساغة الجماهير لها ، وألفتها لاحداثها ، وهي مثل انبعثت من ايمان هذه الجماهير بسلامة هذه المثل ويتضح من سياق القصص المذكورة أن الاشكال العامة لهذه القصص تأخذ نمطا متشابها ، ونسقا تكوينيا متقاربا وتعالج أمورا اجتماعية متقاربة ، فالجماهير لا يروق لها أن ترى الفارس الظالم أو الشرير

منتصرا . ولا تنهى لياليها أو احداثها بخذلان لان الخير ، لايمكن ان يتحقق بهزيمة قوى الحق ، او ضياع حق واضح المعالم ، ولايؤمن بالصورة المهزوزة التي يتسرب من خلالها الموقف الفج ، أو الشخصية الضعيفة ، أو الخصلة المرذولة . لهذا كانت مطامحها وغاياتها تشكل نقطة التحول التي تبدو سماتها واضحة من الوقائع الصغيرة ، والاحداث الاولى ، واللمسات المتكررة .

فالجانب الاخلاقي في الليالي يمثل الجانب الاخلاقي الشعبي الذى تحسه الجمهور فأصبح حلقة من حلقات حياته ، وآمنت به طبقات الشعب فأصبح جزء من كيانها . وقد ازدهر هذا اللون ازدهارا دلّت على بروزه النماذج الكثيرة ، واكدت رسوخه القصص المكررة ، فالمال في الليالي له سلطان يزول بزواله ، وينتهي عند حدود نفاده ، وله اصحاب يكثرون عند توفره . ويتجمعون في حالة وجوده ، وتختفي معالمهم عند ذهابه ، وتنقطع صلاتهم عند انقطاع اجله . وهي تشد بين هذا الجانب المادى وبين الجانب الروحي . وتحدد العلاقات التي يحكمها المال . ويبقيها دوامه ولكن الليالي لا تقف عند هذا الحد . ولا تسلم بهذا الواقع ، وانما تعطي للجمهور حق طموحه . وتحقق للمشاعر الانسانية سبيل بقائها ، فالانسان الذى تقسو عليه الطبيعة بعارض من عوارضها أو تهدر أمواله بسبب من اسبابها، لايعدم المساعدة . ولا تنقطع عنه اسباب الرحمة . ولا يبتعد عنه عطف الكرام ، فيظهر الرجل المنقذ . وتشمخ عناصرا لوفاء . وتزدهر المواقف الانسانية التي لم تنقطع اسبابها ، وعندها تجد الجماهير موقفها البطولي يرتسم فوق هذه المعالم . وتجد طموحها يتحقق في اروقة الليالي نماذج وفاء انسانية بليغة ، وقواعد مجد قومي خير . فيأخذ هذا الانسان من دهره عبرة الاجيال ، ويحس في رحمة الناس مجالا للالتزام بما تريده الجماهير ، فيرد الجميل الى اصحابه، ويعيد الى الناس ثقتهم فتعلو على الوجوه اسارير البهجة ، وتتلألا خصال الارتياح ، فتنتعش النفوس ، وتطمئن القلوب . ويظل الناس يتابعون الموقف

بتلهف ويستمعون الى الاحاديث بشوق . وقد شدت اليها العواطف ، واتصبت المشاعر وكان القصاص يحركون الاشخاص وفق الغايات التي يجدون الانظار تتجه اليها ، ويدركون أن تأثيرها قد اخذ حجمه في الفكر الواقع والحدث ، ويظل الجمهور يتابع ذلك الفقر الذى ذاق صاحبه مرارة العصر ، وتجرع قسوة الحرمان ، ولوعته تعاسة الواقع ، ثم كيف عليه أن يعمل ويجد ، ويثابر ويجمع المال ويحصل عليه بعد الكد والتعب ، فيعود الى اولئك الذين أحسنو اليه يوم حاجته ، وعاونوه يوم شدته ، فيقدم اليهم المال ، ويجزل العطاء ، ردا للجميل ، وحفظا لليد التي احسنت اليه . وهكذا .. ترتفع القيم ، وتحفظ الاخلاق ، ويعم عالم الوفاء والتعاون والاخلاص ، وتسود مثل رد الجميل والاعتراف بالاحسان وتنتشر القواعد التي تؤمن بأن جزاء الخير هو الخير ، وأن العقاب لابد أن ينتظر المسيء والشرير وتتأكد هذه الحقائق في معظم القصص ، وتتحقق احداثها بشكل متناسق ، فكانت صفة الخير هي الغالبة ونزعة الفضيلة هي السائدة واصبحت القصص تحمل عنصر التوجيه ، وتقوم مقام الارشاد ، وتقرأ في كل محفل ، وفي وسط كل حلقة وبيت فيستمع بها الجمهور ، ويتذوق توجيهاً ، ويطبق صورها في حياته اليومية ، فكان العدل أنموذجا من نماذج التطبيق ، وتحمل المسؤولية صورة من صور التقليد ، وتبادل الثقة ، وحسن المعاملة، والالتزام بالوفاء اشكالا من اشكال التعامل ..

ان الصدى الحقيقي الذى دار في اذهان القصاص وهم يتبارون في تأكيده كان يرسم الغايات النبيلة والاهداف الانسانية الشريفة التي كانت تؤكد هذا الخلق ، وتدعو الى الالتزام به ، وكانت جحافل مؤلفي الليالي تستجيب لهذه الغايات استجابات نابعة من ايمانهم باهميتها لاعلاء شأن الجانب الاخلاقي واظهار مدى هذا الجانب في حياة الجماهير ، وبالاستشهادات القريبة والقصص المعروفة والاحداث الملموسة ، فكانوا يؤدون دورهم

في التوجيه أداء يعجز الكثير من الادباء عن ادائه ، ويوظفون الادب في هذا المجال توظيفا يخدم الجماهير ، ويحقق اهدافه في اوساطها ، ويدخل عنصرا اساسيا في التربية الاخلاقية الموجهة ..

لقد ظل النثر العربي يؤدى دوره في التربية الفكرية والاخلاقيـــة ، ويؤدى مهمته في التوعية السياسية والثقافية من خلال انواعـه المتميزة ، واشكاله التي كانت تستخدم في كل غرض مناسب ، فاذا كان المثل والمقامة وقصص الليالي قد شهدت هذا التحول الواضح في العمل الوظيفي ، واذا كانت اشكالها الادبية ومعالجتها الموضوعية قد حددت المهمة التي كانت تتضح من ثنايا الاستخدام المباشـر ، أو التوجيه المحـدد ، فـان الاجزاء الاخرى التي كانت تتراءى من زوايا المعالجة كانت تأخـذ حجمـا ثقافيـا وحضاريا آخر . لانه كان يعرض لاحوال الناس الذين تقصدهـم هـــذه الضروب . ويفصل في استقصاء اوضاعهم الاجتماعية ، واصناف حياتهـــم الاقتصادية . وضروب المعيشة واشكال العلاقة . وتحديد الواقـــع الـذى كانت تخفيه استار من الارتباطات . ولانه كان يدخل في تفاصيل هذه الاحوال ومتابعة نتائجها ، ودراسة اسبابها وعللها وعناصرها ودوافعها . وكل مايحيط بها ، وفي هذه الدراسة والمتابعة كانت تبرز الصور التي يبحث عنها الدارس، ويفتش عنها الباحث . لينتهي الى تحديد كثير من اشـكال التوجيهات .. ولانه كان يقف عند دخائل النفوس ، وما تطويه من انفعالات ، وترسمه من احوال . وتطمح اليه من آمال ، ليقدمها نماذج من الاوضاع التي كـانت تشكل اللوحة الاخلاقية للمجموعة البشرية . ولانها تعطـي الانعكاسـات والاحاسيس التي يزخر بها المجتمع الانساني في تلك الفترة ، وهي صـور ما تزال خفاياها غير مدروسة ، وما تزال البحوث تقف عند المظاهر التـي حددتها هذه الضروب من الادب ، وما يصح أن يقال في تلك النماذج يصح

أن يقال في الرسالة والخطبة والوصية وكل الانواع الادبية الاخرى التي خاطبت الناس لاصلاح احوالهم ، وكتبت لتوجيه حياتهم ، وارشادهم لكل صالح اجمعت على صلاحه الامة . والابتعاد عن كل أمر اجمعت على بطلانه الامة . وقد ظلت هذه الضروب تمثل الوانا من الوان التوجيه ، وشعارات من شعارات الامة التي ترفعها عند كل أمر ، وفي كل مناسبة ، وان افراد دراسة خاصة للقصةتشكل لوناً من الاهتمام، لانها تمثل مساحة كبيرة تشابكت فيها عناصر ، وتجسدت في احداثها وقائع . وتداخلت في اساليب صوغها مطامح ، وارتسمت من بين موضوعاتها اشكال ، وهي جميعها انسانية التكوين ، شمولية المعالجة ، لايمكن تجاوزها ، أو اختزالها في معالجة سريعة ، وهذا ما جعلني افرد لها باباً ، يعطيها حقها ، ويبرز قيمتها ، ويرفعها الى مصافها الذى تستحقه في عالم الادب ، فكرة واداء .

والقصة في الادب العربي منذ نشأتها اعتمدت الانسان عنصرا من عناصر تكوينها ، فأعارته من الاهتمام ما يتناسب مع دوره في الحياة، وقيمته في تغيير الواقع ، وقدرته على هذا التغيير ، وكثيرا ما كانت اخباره تأخذ جانب الابتعاد عن الاعمال المألوفة ، والاحوال التي تعارف الناس على القيام بها ، فدخلت اعماله في نطاق الخوارق ، وانتقلت قدراته الى المحيط الذى تبدو فيه امارات العجز .

وقد التزمت بالحدود التي تحركت في داخلها والمكان الذى ابتدأت فيه ، والنهاية التي انتهت اليها ، كما التزمت بمظاهر الحياة التي احاطت بها ، وصور الواقع الذى تعيش فيه . والخطة الاساسية التي ارتكزت عليها في البناء. وقد التزمت بها وادتها بوضوح وجلاء، واستخدمتها استخداما يدل على النضوج في المعالجة والاقتدار على اداء المهمة ، ولم تغفل وحدة

العمل القصصي الذى كان يشد بين سلاسل فصولها ، ويربط بين اجزاء عناصرها ، حتى اصبح هذا الشد في العمل القصصي خصيصة من الخصائص التي عرفت بها ، لانها اوشكت أن تكون عملا متكاملا لا تبدو عليه امارات الانفصال ، أو تظهر عليه علامات التفكك . وقد يلجأ القاص الى اساليب متعددة يدخلها في اطار قصته ، لتأخذ مكانتها في واقع الاحداث فالموقف الحاد ، والصراع المحتدم والحيوية التي يتميز بها البطل ، والتأجج الذى تتعالى ومضاته ، والعواطف الملتهبة التي تأخذ زاويتها ، كلها عناصر لها دائرتها الموفقة في التكوين العام ، وهي ترابط ترابطا عضويا مع سير الاحداث الذى يشق مساره في الخط العام لاتجاه القصة .

والقصة بأصولها التي اعتمدت الانسان مرتكزا حاولت ان تقف عند علاقاته الاجتماعية التي تشده بالآخرين ، كما حاولت متابعة المظاهر والانماط السلوكية التي انعكست من خلال تصرفاته ، وما كانت تحدثه من تغيير في واقع المجتمع . وتضيفه من اشكال تترك في نفوس الناس ما يجعلها قريبة من مشاربهم حبيبة الى نفوسهم فتستخدم عنصر التشويق والامتاع والمؤانسة ، فتستهوى المتابعين وتشدهم الى احداثها شداً قويا ، وتلبى طموح هذا الانسان الذى يسيل الى معرفة العقل الانساني الذى يتحكم في احداث القصة . ويسعى الى معرفة الدوافع مع الاسباب التي تحمله على أن يتصرف هذه التصرفات ، وتحدثه نفسه الى الانسياق وراء الخط الاخلاقي الذى تلوح ابعاده من خلال الاندفاع ، والعوامل التي تؤثر فيه . والمظاهر التي تمخّض عنها هذا التأثر ، وهذا جانب نفساني بحت ، انتفع منه القاص ووظفه في تناجه توظيفاً انسانيا موفقا ، واستطاع أن يجعله تيارا يحكم احداث القصة ، ويربط بين سلاسل تكوينها ، ربطا فنيا بارعا .

ولابد ان يكون تتابع الانسان لهذه الاحداث ناتجا من التوافق السلوكي الذى ينعقد من خلال الالتقاء عند الصفة المشابهة ، والحالة المتوافقة والاحداث التي ترتاح اليها النفوس ، والعناصر التي تجد في ابرازها بغيتها ، الى غير ذلك من الاعتبارات الفنية والنفسية التي يحاول القاص ابرازها ، والتأكيد عليها . أو اثارتها . ومن خلال التفاعل النفسي، والاعتراف الداخلي ، والبوح الصامت الذى يتداخل في عملية المتابعة لاحداث القصة وما يجرى في حدود التأثر الذى تعكسه شخصياتها وتستثيره النوازع والمطامح والحركات المتباعدة أو المتقاربة تتجلى البراعة التي تحقق النتائج التي تنتظرها جماهير المستمعين ، وتود أن تقف عندها رغباتهم المتوثبة ، وهي نوازع ترضي هذه الجماهير لانها تجسم لها المثل العليا التي كانت تفتش عنها ، وترسم لها البطل الذى افتقدت وجوده ، وتحدد ملامح المجتمع السعيد الذى يجد فيه الانسان سعادته وحقوقه ، ولابد أن يكتب لمثل هذه القصص الخلود ، وتبقى احداثها وشخصياتها حية على امتداد الزمن ، لان هذه الشخصيات تتفاعل مع القارىء مما يجعلها مقبولة يسهل على القارى فهمها وادراكها ، وهي براعة توحي بقدرة كاتبها أو مؤلفها لانه استطاع أن يجمع جزئياتها التي فسحت المجال لتحرك العمل القصصي تحركا شاملا حتى جعلت العناصر الثانوية من القصة تبدو ضعيفة في نطاق الشخصيات البارزة التي اكد دورها القاص ، وحدد مسيرتها المرسومة ، وأغدق عليها من الخصائص ما تركها مكتملة العناصر .

لقد استطاع العقل العربي ان يتخذ من السير القديمة ركائز ثابتة لبناء اعمدة القصة ويشيد منها صرحا شامخا في المجال القصصي العالمي منذ أن عرف العالم القصة . وقد استطاع هذا العقل ان يحول قصة كليب وعنترة وحرب البسوس وذى قار وابي زيد الهلالي والبراق الى اشكال ادبية سمعتها الاجيال فأدركت فيها هدفها ، ورددتها الجماهير فأستوعبت فكرها وبناءها ..

ان قصة كليب وائل واحدة من القصص التي أبدعت في رسمها ريشة القاص العربي ، فحولتها من حقيقتها البسيطة الى اصولها الفنية التي ما تزال تفتقر الى الدراسة النقدية والتي تعيد الى هذه القصة قيمتها في المجال الادبي ، وقوتها في الاداء ، ومكانتها في عالم القصة الحديث ، وكليب هو وائل بن ربيعة التغلبي ، قائد قومه في حرب حاسة ، حققوا فيها الانتصار ، وطهروا ارضهم من الخصوم ، وكانت امانيهم ترمي الى عالم يسعدون فيه بالحرية ، وينعمون في ظله برغد العيش ، بعد أن تحملوا من الجور مادفعهم الى التمرد .. ولم يحسن هذا القائد ادارة قومه فاستأثر بالمراعي الخصبة ، واستبع لوحده بما تدره عليه الارض ، وترك الناس يحلون هموم الحياة ، ويقاسون قسوتها ومرارتها ، وأحل لنفسه ما حرمه على الاخرين .. ولم تعدم القبيلة انسانا يوقف هذا المتمادى ، ويحد من سلوكه الذى خرج على تقاليد القبيلة . فكان الرجل المنتظر جساس بن مرة أحد اخوة زوجته جليلة ، فقد اخذ هذا الرجل دوره في القصة ، واخذ مكانته في المهمة التي حملته اياها هذه المرحلة في القصة .

ان هذا الجانب من القصة اخذ مكانته فيها بشكل فني ناجح ، كتبه القاص العربي فحدد البيئة الزمانية والمكانية ، ورصد كل ما يتصل بعالمها الطبيعي ، وباوضاع الشخصيات التي لازمت القصة واخلاقهم واساليبهم في الحياة وخصائصهم الانسانية وعلاقاتهم التي حددت مراكزهم، وصلاتهم بالواقع ، والمؤثرات التي كانت تأخذ حجمها في التعبير والتأثير ، وما تتركه من ظواهر ، وكانت قدرة هذا القاص تتمكن عندما يحاول تحريك هذه الشخصيات بحيوية واقتدار فيلتقط المواقع الحساسة مستعينا بما كانت تفرضه عليه الوقائع ومستخدما خياله في طبع اشكالها بلمساته الفنية ، مؤكدا التفاعل الحقيقي الذى برزت ملامحه من ثنايا السلوك الفردى أو الجماعي ، وهو في عمله هذا لم يهمل الاسلوب التعبيري الذى كان اساسا في الربط بين المدلول القصصي واسلوب التعبير الموافق ، وقد

استطاع هذا القاص أن يؤكد العناصر الاساسية التي أراد لهـا الوضوح فموقفه كان واضحا من سياق القصة ، وتوفيقه في الاقتراب من مشاعـر الجماهير كان مدركا من خلال التوقيت الزمني للاحداث . وغايتـه التي سعى الى تحقيقها وبلوغ مراميها اصبحت هدفـا من أهـداف البناء العام للقصـة ..

ان بساطة الاسلوب واستخدام الالفاظ المعبرة والموحية والابتعاد عن الغريب من الالفاظ كـان سببا مهما من اسباب انتشار القصـة . وجريـان اخبارها جريانا اكسبها شعبية قل ان نالتها قصة أخرى ..

لقد افلح القاص العربي في استخدام العناصر الانسانية التي عرفتهـا بيئته . وعرفها زمانه وكان يتعامل معها تعامـلا يوحي بحسن تمثلهـا ، ويؤكـد قدرته على فهمها واستقصاء اجزائها وقـد منحته هـذه المعرفة قوة الايغال في الاحداث ، وشدة الملازمة لادراك الروابط التي تشد بينها فكانت قصة احبك نسيجها . وتماسكت خيوطها . ومظهرا من المظاهر الفنية البارزة.

أن وقوف القاص عند كليب الذى اغتصب حـق قومـه يمثل التفاتـة جريئة لتحديد العقدة الاساسية في القصة . وتحديد ابعـاد الرجل المنقـذ المتمثل في جساس بن مرة ويمثل التفاتة أخرى لايجاد الحل الصحيح للعقدة، ووقوفه عند أحوال القوم الذين اشتد فيهم الظلم وضاقت عليهم فرص الحياة وعانوا من بؤس الايام يمثل التزاماً بتحديد الطـرف المتحرك في القصـة ، ويمثل التزاما بمتابعة هذا الطرف صاحب المصلحة الاساسية في القصـة ، ويمثل تأكيدا بأن القاص كان يحرك الاشخاص وفق الاسس التي يراهـا صالحة لخدمة هذه الجماهير التي كانت تضغط من خلال مشاعرها ، وتؤثر من خلال علاقاتها في توجيه القصة الوجهة الانسانية المقبولة لتحقق لهـم الحياة التي كانوا يرغبون في الوصول اليها . وتحقق لهـم المستقبل الذى من أجله وقفوا امام خصومهم واجبروهم على الهزيمة .. ووقوف القاص عند

جليلة زوجة كليب واخت جساس يمثل التفاتة اخرى في سياق الاحداث لابراز الصراع العاطفي الذى أخذ دوره في تحريك العواطف في موقفين غريبين من مواقف الاعتزاز والعاطفة . موقف الزوجة التي اخلصت وضحت وموقف الاخت التي ترى في اخيها الرجل المنقذ والانسان الذى تطمح اليه قلوب الناس .

ان وقوف القاص عند هذا الجانب يمثل الادراك الحقيقي لتحريك العواطف عند النقطة الحرجة . والموقف الحاد ، وان هذا الموقف ظل اساسا في بناء الهيكل العام للمأساة في القصص العالمي . وظلت مرتكزاته نماذج للربط بين الكثير من اشهر وأغرب هذه القصص .

ان وقوع الانسان بين عاطفتين كريمتين تتنازعان العواطف ، وتتقاسمان المشاعر . وتشد كل واحدة منهما الى ناحية تمثل الصراع الذى يحتدم في النفس البشرية عندما تقف هذا الموقف ، وان روابط الاخوة ، ووشائج الاتصال حملت الاخت جليلة على التعاطف مع اخيها الانسان ، الذى كان يوفر لها وسائل الحياة . ويحقق لها الحماية المنتظرة ، ويؤكد لها وجودها الانساني في عالم اعتمد القوة عنصرا من عناصر الحياة . ان هذا الرباط الوثيق كان عامل شد حاسم في اذكاء جذوة الالتزام بجانب الاخ . وفاء للقيم السائدة ، واعترافا بالحقوق التي اصبحت اساسا من أسس الانتماء.. وان روابط الزوجية دفعتها الى الاخلاص الى زوجها . والتضحية من أجل الحفاظ على الكيان العائلي . لانه المسؤول عنها ، المدافع عن وجودها ، الى جانب الرابطة العاطفية التي تحكم بناء العلاقات وتلم اشتاب الشمل ، فهو البطل والزوج والنموذج ، وهو الانسان الذى يقدر نزاهة الحب الذى يجمع بينهما ..

ان هذا الصراع بين هذه العواطف يمثل ذروة المعاناة ويعكس قمة الصراع الذى كان يساور المرأة وهي تتمزق احساسا . ولكنها تظل رمزا من رموز المجد الانساني الذى استطاع ان يغلب جانب الخير ، وينتصر للحق الذى يراه ، وهي نهاية تحددها القصة .

ومثل ما تركت قصة كليب اثرها في الادب فقد تركت حرب داحس والغبراء اثارها في الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي في الجزيرة . لانها قامت اثر نزاع طويل استمر بين اسرتين كبيرتين ودفع بابنائهما الى ان يقتتلوا ويتفانوا بسبب عوامل متداخلة ، وشاركت مشاركة فاعلة فكانت سببا غير مباشر في الحرب الا انها ظلت تأخذ حجمها في بلورة الاسباب التي اتخذت طريقها المباشر ، وحددت خطها الحاد لالهاب المشاعر ، وتأجيج الحماس ، واندفاع القبيلتين اندفاعاً عنيفاً من اجل تأكيد الذات الفردية وتحقيق عامل السيطرة على مجموعة قبائل غطفان ، وان حالة الهدوء التي سادت الفترة السابقة لوقعة هذا اليوم كانت فترة هدوءٍ مشوبة بقلق ، ومرحلة تهيؤ مصحوبة بتوثب ، ولكن الود الذي كان يغلف هذه العلاقة ظل صورة عريضة وواسعة تتحرك في اطاره كل النزاعات الداخلية ، وتتبلور في ظله كل التوجهات التي تنطلق بشكل مباشر أو غير مباشر .

والمعروف ان ذبيان ظلت تتمتع برقعة واسعة من الارض الصالحة ريّاً ورعياً ، وبقيت علاقتها بجاراتها تحمل طابع الاحترام بسبب استقرارها وبقائها . وبسبب وضعها الاقتصادي والقبلي والسياسي ، بينما كانت عبس تخوض صراعاً من اجل البقاء ، وصراعا من اجل الحياة ، وصراعا من اجل الاستقرار الذي كانت تسعى اليه وتتأمل حدوثه وعلى الرغم من التعاون الذي كان يتم بين القبيلتين عندما تتعرض احداهما الى الغارة فان نظرة عدم

الارتياح التي كانت تسود بعض الاحداث هي الحقيقة الماثلة في تحديد العلاقة بينهما واذا حاولنا ان نَردَّ اسباب الحرب الى عوامل كانت راسخة في الكيان القبلي ونابتة في الوجود الذاتي لطبيعة المجتمع استطعنا ان نصل الى الحقيقة الواضحة التي مهدت لكل هذه الحرب الطويلة ان تظهر بشكل واضح وتتميز اسبابها بنوازع بينة . فالمجتمع القبلي بكل تركيبه وما يحمله من قيم ذاتية وفردية وما يثيره في نفس الانسان العربي ، يمثل واقعاً ملموساً ، وشكلا حاداً من اشكال التوتر والانفعال والانطلاق والاندفاع لانه يتصل بتكوين عصبي ويتحمل الوان تقاليد موروثة حددها الثأر ، ودفعتها عوامل المطالبة به ، ورسخ قاعدتها الاباء الذى ظل صورة شامخة في البناء العربي ..

ان هذه العوامل مجتمعة وما حملته من نوازع متداخلة ، وتراكمات قبلية مترسخة قد هيأت الوضع للانفجار ، ومهدت الدرب امام بوارق الحرب التي اخذت ملامحها تتألق في العلاقات ، وتتأزم في مجال التحرك ، ولكنها لم تجد الاحتكاك المباشر الذي يثير المسألة . والنقطة الحادة التي تلتقي في بؤرتها بوادر الانطلاق ، وفي اللحظات الحاسمة التي يجهل زمنها أو مكانها تثار نوازع الحقد ، وتحتدم عواطف الفردية لتجد مجالها الواسع ، وميدانها الرحب فكانت حالة السباق التي جرت بين فرسين هما داحس[٧] والغبراء[٨] اللذان سميت باسميهما ، وظلّ هذا الاسم رسماً مخيفاً لما حمله من فواجع، واثاره من احقاد ، وألهبه من دوافن ، وبقيت احداثه الدامية مجالا لابداع الشاعر العربي زهير بن ابي سلمى ، وفجائعه المذهلة ميداناً لصور هذا الشاعر وهو يروي اسبابها الماحقة واثارها التي تركت ظلها الثقيل فوق كل

---

(٧) داحس : فرس لبني بربوع واسم ابيه ذو العقال وهو فرس لقرواش بن عوف .

(٨) الغبراء : فرس لقيس بن زهير وقيل انها لحذيفة .

ثنية من ثنايا ارض المتقاتلين ، فعانوا مرارة القحط ، وذاقوا بؤس الفاقة وقدمت كل قبيلة مواكب من ابطالها وقودا جزلا .. وخلاصة ما قيل في هذا اليوم هو ان قيساً وحذيفه تراهنا على داحس والغبراء وايهما اسبق وكانت الغاية من ذلك ان يثبت كل واحد للآخر أن نظرته في الخيل اثقب ، ومعرفته اعرق ، وكان سبب الرهان يعود الى ورد بن حابس العبسي ابي عروة الشاعر ـ وقد عرف بالشؤم ـ فقد زار ورد حذيفة وامتدح خيل قيس عنده فأغضب ذلك حذيفة وانتهى الامر الى رهان وكان قيس كارها له . وفي اليوم المحدد للسباق خرج حذيفة بن بدر وقيس بن زهير ، واتيا المدى الذي ارسلت الخيل منه ينظران كيف خروجها . ولما ارسلت الخيل جرى بينهما حوار ادبي بقيت معانيه تتردد في كتب الامثال لما حمله من توقعات ، وعبر عنه من تجارب ، ولما اقتربت الخيل من الثنية التي كمن فيها الفرسان كان داحس في مقدمة الخيل ، فخرج اليه احد افراد الكمين فلطمه هو وراكبه ، ولم يخرج الا وقد فاتته الخيل . ولما دنت الخيل الى حيث وقف الناس جاء داحس والغلام يسير باعلى رسله فأخبر قيساً الخبر فانكر حذيفة وادعى السبق ظلماً ، اما قيس فقد مضى هو واصحابه الى الشعب حيث يكمن الفرسان فوجدهم ووجد الرجل الذي حبس داحساً ولطمه فاعترف الرجل بذلك وكان من بني اسد[٩] ولج قيس في طلب السبق وفي احدى غدوات ابن حذيفة على قيس تناول رمحه ودق به صلب الغلام .. وهكذا بدأت الحرب تتقد واولياتها تتسع ، وبدأت كل العناصر الفاعلة تأخذ حجمها في توسيع رقعتها وكانت ايامها التي استمرت اربعين سنة كما ذكرت الاخبار لم تنتج لهم منها ناقة ، ولم تنبت ارض ..

---

(٩) الدكتور عادل البياتي . الشعر في حرب داحس والغبراء ١٢١ـ١٢٢ .

وكانت سنوات الحرب على القبيلتين عجافاً ، وكانت الاوزار ثقيلة ، والمأساة التي خلفتها في كل نفس مريعة ، بعد أن اخذت قوى القوم تضعف، وقد دفعهم ذلك الى التفرق والهجرة ، واوشكت عرى التماسك تتفكك ، واواصر القرابة تتبدد . ووشائج الاخوة تتقطع ، وكان كل واحد منهم يشعر بان خصمه الذي يقاتله هو اخوه في الدم والارض والمصير والتاريخ ، وان استمرار الاقتتال لا يعني الا الفناء ، ولا يثير الا الشحناء والبغضاء ، وهنا تعلو صيحات الخير وترتفع نوازع الصلح لاطفاء نار الحرب ، ليعود الصفاء الى النفوس . ولتعود الارض المعطاء تغل بخصبها ، وترفد بعطائها وتطعم الجائع ، ولتعود السوام آمنة مطمئنة ترعى الكلأ وتنطلق في مرابع العشب، ويشير عليهم قيس بالعودة . ولم يجد الربيع بن زياد امراً احكم ولا احسن من الصلح ، فينشر السلم اجنحته الوادعة على ربوع القبيلة وتصفو النفوس ويعود الجميع الى احضان ارضها الام ويكتبوا تاريخاً جديداً في العمل لاتفوح منه رائحة الدم . ولاتستنزفه ثارات الحقد الدفين . وينبري رجلان كريمان هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ليتحملا دفع الغرامات . فكان لهما ذكر حميد سجله الشاعر زهير بن ابي سلمى وظلت مآثرهما خالدة خلود الامة التي انجبت الرجال والابطال .

وقد تميز شعر الايام بشكل عام وهذا اليوم والبسوس بانه شعر مقطعات ولهذه الظاهرة اسبابها ودواعيها ، وربما يدخل هذا السبب في طبيعة الاختيار التي تمت . والاستشهاد الذي استخدم ، لان الرواة عندما بدأوا يتحدثون عن الايام كانوا ينتقون من القصائد ما يوافق تلك الاحداث، ويختارون من المقطعات ما يأتي مطابقاً لتلك الاحداث حتى تكون ارسخ في الذهن واثبت في الرواية وأوقع في النقل. ولان الاحداث في جملتها ترتبط بخبر أو تتحدد بذكر شخص . أو يستشهد بها من اجل تحديد مكرمة اشير اليها أو عمل جليل تذكر خصائصه . وقد ظل الشعر المختار يدور في حدود هذه الرؤية . وبقيت ابياته المختارة تمثل مواضع الاستشهاد المطلوب ، اما

الابيات الاخرى التي قيلت أو قدم بها لتلك الحادثة ، أو تناول احداثا اخرى ترتبط بها فقد افرز عنها ، وعزلت ابياته عن هذه المقطعات ، وحصر في دائرة التذكر أو الاستشهاد البعيد ، وهـذا ما جعلها بعيـدة عن استشهاد الرواة وبالتالي أدّى الى نسيانه . ان هذا الجانب لا يعني انه السبب الرئيس الذي شارك في ضياع الشعر ، ولكن هذا العامل قد يشكل واحداً من العوامل الكثير التي شاركت وبشكل فعّال فيفقدان سيل زاخر من الشعر العربي .. لا مجال للحديث عنه في هذا الموقع .

ومن الطبيعي ان تنعدم المقدمات التي الفناها في القصيدة العربية في شعر الايام لاختلاف الطبيعة التي عاش فيها هذا الشعر ، والاسباب التي حملت الشعراء على ان يقولوا فيه ما يقولون ولكن اغراضه قـد امتدت الى كل فخر وتناولت كل معنى متصل بهذه الصفة لان الصورة القبلية والواقع القبلي والقيم الاجتماعية التي كانت تسود المجتمع كانت محصورة في تأجيج عناصر الاباء واثارة نوازع البطولة وتقديس التضحية ، والدفاع عن كل القيم التي تساهم في رفع مكانة القبيلة . ومن الطبيعي ان تخضع المضامين الشعرية والاساليب التي استخدمها الشعراء للطبيعة الفنية التي كانت تتحكم في النص الشعري فهو نص يعالج احداثاً ، ويتحدث الى مجاميع لها صلة مباشرة بكل حدث ، وفي ضوء مقولات الشعراء التي كانت تعبر عن الوجه الاعلامي لكل قبيلة وما تسعى اليه . كانت تتحدد امارات الاندفاع ، وتوثق حركة الامتداد التي ظلت تشد هذه القبائل الى الصراع ، وتدفعها من اجل الاستزادة للبذل من اجل تحقيق النصر ، وكانت السنة الشعراء هي السنة اللهب التي تعطي الحرب وقودها ، وتهيىء النفوس الضامئة الى الارتواء . فالعبارات تأخذ صيغة التبليغ والفاظ ترك القتلى طعاماً للوحش واصوات النائحات تتجاوب ، والفاظ الهزيمة التي تلحق بالخصوم . كلها صور مألوفة في هذا الشعر لانها كانت تمثل الدوائر الصغيرة التي تشكل